

أسوار مدينة فاس أصالة أم حاجز؟ (*)

فنان عبد القادر

من غير اليسير نفي المدلول الحضاري لأسوار مدينة فاس دون المساس بالقيم التاريخية التي تشكل مرجعا جوهريا لأي إختيار إجتماعي أو إقتصادي على صعيد المدينة ، لذلك فإن الفصل بين أصالة الأسوار وأصالة المجموعة الحضرية ككل فيه كثير من التجاوز ، يبرره عند البعض ضرورة الانكباب على المشاكل الحالية للمدينة قبل الاهتمام بالحفاظ على التراث التاريخي ! فهل معنى هذا الطرح وقوف خصائص المدينة الأصيلة في وجه الحلول العصرية لمشاكلها الاجتماعية والاقتصادية ؟ إذا كان الجواب بالنفي ، ما هي العتبة التي تفصل ضرورة الحفاظ على الأسوار كمعلمة تاريخية عن التضحية بها في سبيل حل المشاكل الآنية ؟ ثم ، إلى أي حد يمكن دمج وتوظيف الأسوار الحالية ضمن التشكيلة الاجتماعية ــ الاقتصادية لمدينة فاس الكبرى ؟

يستدعي تحليل الاشكاليات السابقة دراسة وظيفة الاسوار قديما وحديثا ، ثم حالتها ومظهرها الحالي ، لأنهما يعكسان مدى مطابقة مستويات التوظيف لمدى العناية المخصصة لها ، وفي الختام ، ضبط لمفهوم الأصالة بالنسبة للتشكيلة الاجتماعية ــ الاقتصادية المميزة للمدينة ، والمغزى الذي يمكن أن يحمله كل اصلاح ضمن هذه التشكيلة دون تشويهها .

(*) موضوع مساهمة الباحث في الأيام الدراسية التي نظمها فرع فاس للجمعية الوطنية للجغرافيين المغاربة بكلية الاداب والعلوم الانسانية يومي 11 و12 مارس 1983 .

أولا : توظيف الأسوار قديما وحديثا

1 - وظيفة الأسوار قديما :

يظهر من تفحص الكتب التاريخية التي اهتمت بفاس ، أن أسوار المدينة عرفت عدة مستويات من التوظيف طيلة الفترة الفاصلة بين تاريخ بنائها في القرن الثاني الهجري (الثامن ميلادي)[1] ، والعقد الثامن من القرن العشرين .

وخلافا لما يتداول من كون الأسوار بنيت أساسا من أجل تشكيل حزام دفاعي حول المدينة ، فإن المصادر التاريخية التي تطرقت لظروف انشائها لم تركز على الدور العسكري — الدفاعي للأسوار ، فصاحب جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس يقول : «.. وكان الامام ادريس رضي الله عنه في أثناء ذلك ، أمر الناس ببناء الدور والغرس ونادَى فيهم أن كل من بنَى موضعا أو اغترسه قبل تمام بناء السور فهو له هبة من الله تعالى ..»[2] يظهر من هذا النص أن بناء الأسوار سبق وجود التجمعات السكنية ، يقول صاحب زهرة الآس[3] : «أقام الامام إدريس منها بالموضع المعروف بجرواوة حيث نزل بأخبيته وقبابه ، وابتدأ سورها من جهة القبلة وفتح هناك بابا سماه باب القبلة ، ثم مر بين الموضع المعروف بالفوارة ، وموضع زيتون ابن عطية وفتح هناك بابا سماه بباب الفوارة ، ثم مر بالسور على الموضع المعروف بالمخفية إلى الوادي الكبير إلى برزخ وفتح هناك بابا سماه باب المخفية ، كان يقابل باب الفرج من عدوة القرويين ، ثم مر بالسور إلى الشيبوبة وفتح هناك بابا سماه باب الشيبوبة كان يقابل باب الفصيل المعروفة الآن بباب النقبة من عدوة القرويين .....، ثم مر بالسور إلى رأس حجر الفرج وفتح هناك بابا سماه بباب أبي سفيان ، ثم مر بالسور على جرواوة وفتح هناك بابا سماه باب الكنيسة يعرف الآن بباب الخوخة ، وبخارجه كان يسكن المرضَى لتكون روائحهم تحت الريح الغربية

(1) الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس — علي بن أبي زرع الفاسي — دار المنصور للطباعة والوراقة — الرباط 1973 (صفحة 38) .
(2) جني الآس في بناء مدينة فاس — علي الجزنائي — المطبعة الملكية — الرباط 1967 (صفحة 26) .
(3) (صفحة 26)

فإنها الغالبة بفاس ، وليكون تصرفهم من الماء بعد خروجه من البلد ولا يصل من ضررهم إلى المدينة شيء ......» .

يبرز جليا من خلال النص أن فتح الأبواب بسور المدينة كان الهدف منه تنظيم الإتصال مع مختلف الجهات الخارجة عن نطاق السور ، كما يمكن ملاحظة توطين المرضى خارج السور مما يدل على رغبة الإمام ادريس في حماية سكان المدينة من الأمراض . لذلك يمكن القول ان مفهوم الأمن لا يحمل مفهوم الدفاع العسكري بقدر ما يحمل مفهوم الأمن الحضاري والاجتماعي ، المرتبط بتهييئ ظروف الاستقرار داخل مجموعة حضرية منتظمة محدودة المعالم ، وقابلة للضبط من طرف الحكم القائم .

* * *

إلا أن هذا التوظيف الأصلي للأسوار عرف بعض التطور خلال الحقبات التاريخية اللاحقة لمرحلة التأسيس ، فهو تارة يتخذ صبغة الجدار الدفاعي والتحصين العسكري ، خاصة طيلة فترات الاضطرابات السياسية وتارة تحديد حدود الرقعة الحضرية ، إما عن طريق توسيع حزام الأسوار ، أو إضافة نوايا جديدة (العهد المريني) . أما المظهر العسكري المحض فيتجلّى في إنشاء الابراج والحصون ، سواء التي تشرف على المدينة العتيقة (برج الشمال — برج الجنوب — قصبة تمدرت ، برج الشيخ أحمد ، على عهد الدولة السعدية) . أو الأسوار المنيعة المزدوجة التي تنفصل عن بعضها بواسطة ممر المراسة (باب الدكاكين . باب السمارين) ، العهد المريني .

* * *

تباين مستويات التوظيف هذا ، يعكس نوع العلاقة التي كانت تربط سكان مدينة فاس بالحكم القائم آنذاك ، ولعل أحسن نموذج لهذه العلاقة هو إقامة الابراج المشرفة على المدينة ووضعها تحت رحمة مدافع الحكم السعدي القائم آنذاك ، تفاديا لأي انتفاضة ضده .

* * *

في عهد الحماية انتهى العمل بالوظيفة الدفاعية للأسوار ، واتضحت معالم المدينة الأصيلة في نواتين رئيسيتين ، نواة فاس البالي بقسميه ونواة فاس الجديد وبدأ

المستعمر يرى في الأسوار آثارا تاريخية يجب الحفاظ عليها ، فاستصدر في هذا الإطار مجموعة من الظهائر الشريفة ، أشهرها ظهير غشت 1914 الذي يصنف الأسوار ضمن المآثر التاريخية التي يجب الحفاظ عليها وصيانتها .

إلا أن هذا الظهير والمجموعة التي لحقته ، مع أنها تبدو نبيلة الأهداف ، كانت تخفي وراءها حاجة المستعمر إلى فصل المدينة القديمة عن دار دبيبغ ، مقره . أو بمعنى آخر فصل الأهالي عن السكان الأوربيين . في نفس الوقت كان الفاسيون يعتبرون كل من حاول الاستقرار خارج الأسوار خائنا للقضية الوطنية ومتقربا من الجهاز الاستعماري الحاكم .

يتضح إذن أن مفهوم التوظيف يختلف ليس فقط من فترة لأخرى ، بل حتّى على المستوى الايديولوجي خلال حقبة تاريخية معينة .

* * *

خلاصة القول أن مستويات التوظيف متباينة حسب الفترات التاريخية تباينا متناسبا وموافقا لطبيعة الحكم القائم وأهدافه السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

— يمكن اعتبار امتداد وتطور حزام الاسوار بالنسبة للمؤرخ أساسيا في فهم أعمق لنوع العلاقة التي كانت تربط الحكام بالمحكومين .

تصبح إشكالية التوظيف أكثر تعقيدا حينما نحاول فهمها بوضعها في الإطار الحالي ، هل هي مآثر تاريخية ؟ أم جزء لا يتجزأ من مقومات المدينة الحضرية ؟

2 — الوظيفة الحالية للاسوار

من الضروري التمييز في هذا الإطار بين نظرتين مختلفتين :

1) نظرة الباحث والمخطط ، والمهتم بدراسة تطور المدينة ككل ، وهي — إذا صح التعبير — نظرة فوقية .

2) نظرة سكان المدينة القديمة الذين يعايشون السور يوميا .

1) النظرة الأولى

مازالت الأسوار خاضعة بالنسبة للجانب الرسمي للمراسيم الوزارية ، والظهائر

التي استصدرت في عهد الحماية ، أي أنها تصنف ضمن المآثر التاريخية التي يجب ترميمها وحمايتها . لذلك فهي بالنسبة لهذا الجانب معلمة تاريخية أساسية ، يمكنها استقطاب السياح ، وإعطاء طابع متميز للمدينة بالمقارنة بمثيلاتها المغربية .

يرَى بعض الباحثين أن الحفاظ على الأسوار في إطار المدينة الحالية ، التي تتميز بتدهور كبير لاحيائها وظروف العيش داخلها ، مرده محاولة حجب هذه الاشكاليات عن الأعين الأجنبية عن المنطقة ، بالإضافة إلى تدعيم تهميش النواة التقليدية بعزلها عن الحياة اليومية للمجتمع العصري بمدينة فاس (على سبيل المقارنة دوار الدباغ بالرباط — كريان بن مسيك بالدار البيضاء) .

يتميز هذا الطرح بفصله بين أنشطة اجتماعية واقتصادية تميز المدينة ككل ، كما أنه يغفل كون النواة الأصلية هي محور المدينة ، بعكس الاحياء الهامشية بالرباط والدار البيضاء . التي تحاول الاندماج في إطار الشبكة بدون أن تتوفر لا على الخصائص الاجتماعية ولا الحضارية المميزة للمجموعة الأصيلة بالمدينة .

إذن محاولات التهميش هذه ، لا تخص ولا تنطبق على نموذج مدينة فاس ، لأن النواة هي الأصل ، والمرجع الإجتماعي والاقتصادي والثقافي لأي محاولة للانقاذ .

وبما أن الأسوار تشكل إحدَى عناصر هذه التشكيلة لا يمكنها بأي حال من الأحوال أن تكون إحدَى وسائل التهميش .

2) النظرة الثانية

كان من الضروري ، لتحديد هذه النظرة ، القيام بدراسة ميدانية[4] ، على أساس أن المجموعات السكنية والسكان أقرب إلى الشعور بالمشاكل اليومية التي يمكن أن يطرحها الاحتكاك والمعايشة اليومية لحزام الأسوار .

* * *

يمكن تلخيص نتائج الدراسة الميدانية في النقط التالية :

(4) تمت هذه الدراسة بمساعدة طلبة السنة الثالثة جغرافية . حوالي 500 منزل مواجهة أو ملاصقة للأسوار .

ا) إن الأسوار لا تشكل حاجزا في وجه التأثيرات الطبيعية (أمطار — شمس — رياح ....) بالنسبة لِـ 70٪ من السكان ، في حين أن 30 ٪ الباقية ترَى العكس . (الشكل رقم 1) . ويرجع مرد هذا الاختلاف إلى توزيع الأحياء ، وعلاقتها بالأسوار ، فسكان باب الكيسة الزنجفور وفاس الجديد ، يرَى 50 ٪ منهم أنها تشكل حاجزا طبيعيا نظرا لاندماج السور مع سكناهم ، لدرجة أنه يشكل في بعض الأحياء حائطا من حيطان المنزل (الشكل 3) . أما سكان باب الفتوح المواجهون للسور فـ 90٪ منهم يعتبرون أنه لا يقيهم من التأثيرات المناخية (الشكل 2) .

* * *

ب) إن السور جزء أساسي من مقومات الشخصية الفاسية ، 75٪ من السكان يعتزون بالانتماء إلى النواة التقليدية التي تحدها الأسوار (الشكل 1) . تقل هذه النسبة بالاحياء التي يسكنها الوافدون حديثا على المدينة .

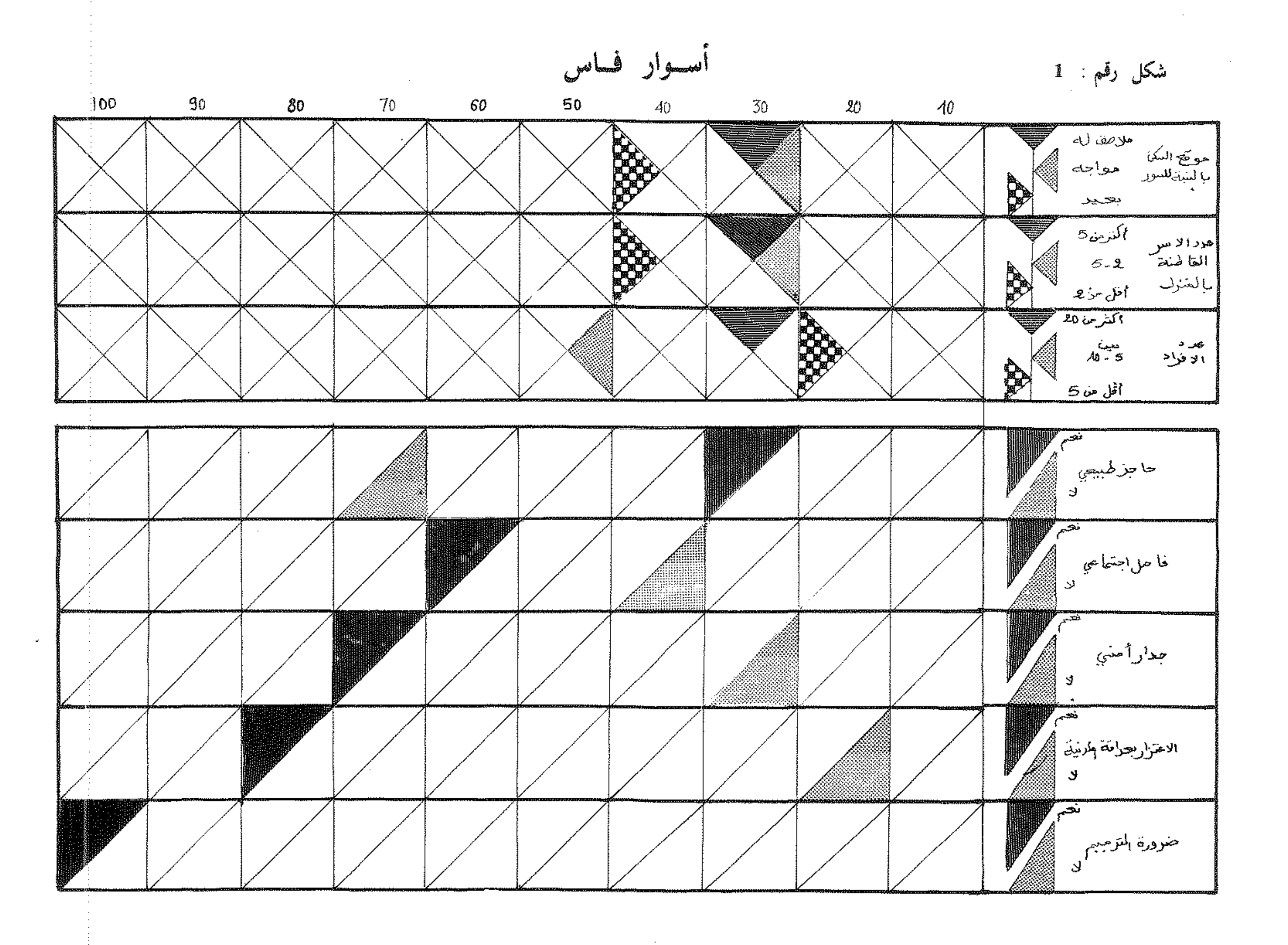
ج) تشكل الأسوار فاصلا إجتماعيا خاصا بالاجزاء التي تفصل بين الأحياء الفاسية العريقة ، والسكن الهامشي الحديث التوسع ، أحسن نموذج يمثله درب الميتر ، حيث السور الذي يربط باب المحروق وعين أزليتن ، فـ 90٪ من سكان هذا الحي يرون فيه حاجزا يفصلهم عن دوار المقطع ، وحافة مولاي إدريس ، اللذين يضمان حوالي 10 آلاف ساكن تنتمي غالبيتهم إلى البادية(5) .

د) يتضح من مختلف الاجابات على السؤال حول مدَى الشعور بالأمن داخل أو خارج الأسوار ، 70٪ من مجموع السكان المجاورين للسور يشعرون بالأمن داخل إطاره ، إلا أن هناك بعض الاختلافات التي تأخذ بعين الأعتبار الخصوصيات المميزة للاحياء ، والانتماء الاجتماعي للقاطنين بها ، بالإضافة إلى موقع المنطقة بالنسبة للرواج الاقتصادي المميز للحي ومدَى انفتاحه على خارج الأسوار . أحسن نموذج لهذا التباين هو سور باب المحروق : 90٪ يرون فيه حاجزاً أمنيا ، بعكس السور المقابل لباب الفتوح حيث لا تتجاوز هذه النسبة 40٪ (الشكل 2) . كان جواب أحد الأفراد بهذا الباب «كيف أشعر بالأمن داخل الأسوار وهي مفتوحة من كل مكان» .

* * *

(5) وزارة السكنَى وإعداد التراب الوطني .

شكل رقم : 1


أسوار فاس
100
90
80
70
60
50
40
30
20
10
موقع السكن بالنسبة للسور
ملاصق له
مواجه
بعيد
عدد الأسر القاطنة بالمنزل
أكثر من 5
2 - 5
أقل من 2
عدد الأفراد
أكثر من 20
بين 5 - 15
أقل من 5
حاجز طبيعي
نعم
لا
عامل اجتماعي
نعم
لا
جدار أمني
نعم
لا
الاعتزاز بحراسة مدينة
نعم
لا
ضرورة الترميم
نعم
لا

هـ) من خلال الدراسة الميدانية ، إتضح أن أبواب مدينة فاس القديمة تستقطب أهم الأنشطة الاقتصادية ، وتركز الحركة التجارية عبر محاور قارة ، الشيء الذي يؤدي إلى رواج يفوق ما تعرفه أكبر شوارع الاحياء العصرية من المدينة[6] . فباب الفتوح مثلا يشكل مفترق طرق يصل عدد الراجلين به إلى 6000 راجل من الساعة الخامسة إلى السادسة والنصف مساء ، في الوقت الذي لا يتجاوز فيه هذا العدد 4000 راجل بشارع الحسن الثاني ، أكبر شوارع المدينة .

* * *

يتجلى إذن من خلال النقط السابقة ، سواء أكان ذلك على مستوى الصعيد الرسمي أو الشعبي ، أن الأسوار ذات أهمية بالغة ، كظاهرة اجتماعية واقتصادية مرتبطة بالحياة اليومية المعاصرة . لذلك فإن إلقاء نظرة فاحصة على حالتها المزرية يجعلنا نتساءل عن مدى تطابق درجة الاهتمام والعناية بها ومستويات توظيفها ؟ .

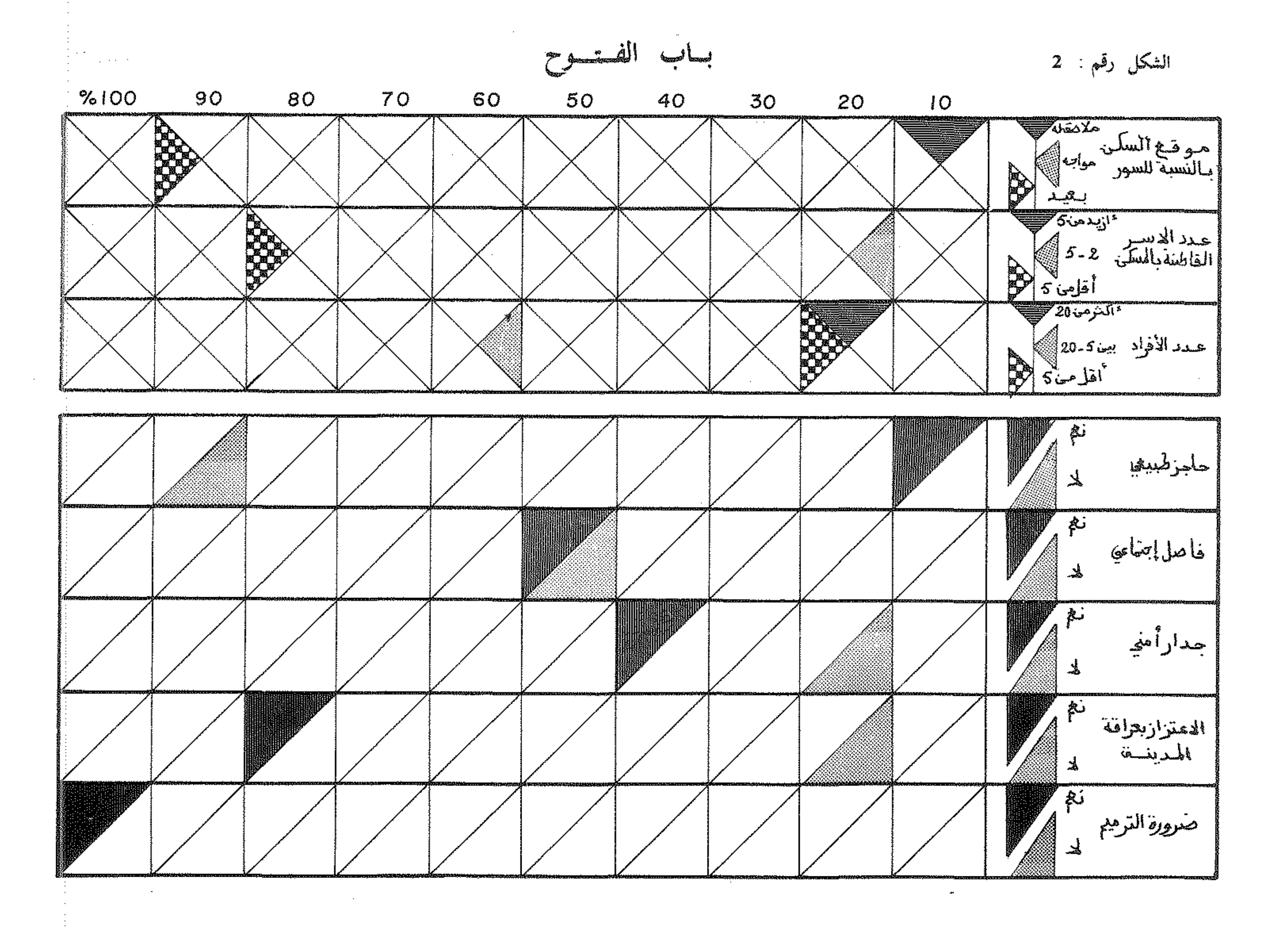
ثانيا – إشكالية تدهور أسوار فاس

من الضروري – لفهم هذه الاشكالية – الاشارة إلى أن بعض الأجزاء من السور قد تدهورت إلى درجة الزوال ، كما أن أجزاءاً أخرى استصلحت واعتني بها على عهد الحماية ، أو حاليا وتتميز بمظهرها السليم ، ثم هناك أسوار استصلحت مؤخراً وبدت عليها مظاهر التدهور المميزة للأسوار الأصيلة .

يتميز مظهر الأسوار الحالي إذن ، بتعقد مرده ، تراكم محاولات الاصلاح ، وتنوع مظاهر التدهور ، هذا عدا التعقد التاريخي الناتج عن تعدد عمليات الهدم وإعادة البناء التي ميزت كلا من الدولة المرابطية والموحدية ، لدرجة أن بعض المؤرخين يميلون إلى تأريخ الاسوار انطلاقا من عهد الخليفة الموحدي الرابع محمد الناصر الذي أعاد بناء الأسوار سنة 601هـ .

* * *

(6) إحصائيات التصميم المديري Vol 2, page 56 ، تقوم حاليا مجموعة من الاساتذة بمساعدة طلبة السنة الرابعة جغرافية بدراسة دقيقة لحجم هذا الرواج ذلك في إطار تحضير أطلس مدينة فاس .



الشكل رقم : 2
باب الفتوح
%100
90
80
70
60
50
40
30
20
10
موقع السكن بالنسبة للسور
ملاصقة
مواجه
بعيد
عدد الاسر القاطنة بالمسكن
أزيد من 5
2 - 5
أقل من 5
عدد الأفراد
أكثر من 20
بين 5 - 20
أقل من 5
حاجز طبيعي
نعم
لا
فاصل إجتماعي
نعم
لا
جدار أمني
نعم
لا
الاعتزاز بعراقة المدينة
نعم
لا
ضرورة الترميم
نعم
لا

الشكل رقم : 3

باب الكيسة - الزنجفور

	10	20	30	40	50	60	70	80	90	100 %
موقع المسكن بالنسبة للسور: ملاصق له / مواجه / بعيد										
عدد الأسر القاطنة بالمنزل: أكثر من 5 / 5-2 / أقل من 2										
عدد الأفراد: أكثر من 20 / بين 20-5 / أقل من 5										
حاجز طبيعي: نعم / لا										
فاصل اجتماعي: نعم / لا										
جدار أمني: نعم / لا										
الاعتزاز بعراقة المدينة: نعم / لا										
ضرورة الترميم: نعم / لا										

العنصر الثاني من هذه الاشكالية هو دينامية التدهور ، التي يرجع سببها إما إلى تقنيات البناء التقليدي الأصلي وإما إلى طبيعة مواد البناء ، بالإضافة إلى الظروف البيئية للاسوار .

1 – تقنيات البناء وتحضير المواد[7] .

ا) **الخلطة** : وهي عبارة عن مركب يدمج فيه الرمل بالجير البلدي ، والحمري بنسب مختلفة 50٪ من الرمال ، 25٪ من الجير البلدي ، 25٪ من الطين (الحمري) ويطلق على هذا القياس «الثالثة» . النوع الثاني من الخلطة يحتوي على 50٪ من الحمري ، 25٪ من الجير ، ثم 25٪ من الرمال ، ويعرف هذا النوع عند البنائين «بالمركز» . تستعمل كلا الطريقتان في الجزء الواحد من السور ، فتخصص «الثالثة» للمستوَى الأدنَى من السور ، في حين يخصص «المركز» للمستويات العليا .

بجوار الخلطة يستعمل «الحجر الاسماعيلي» ويقصد به الصخور الكلسية المستجلبة من محاجر بن سودة (الكلس البحيري) ، والحصَى من واد فاس ، بالاضافة إلى الرصراصة Travertins الموجودة بكثرة بمدينة فاس (محاجر فندق المرينيين) .

يعتمد في كل هذه المراحل على خشب العرعار الذي يمتاز بصلابته لوضع القوالب وتحضير الألواح اللازمة لنصب الصقالة : (Echafaudage)

ب) **تقنية التشييد** : تشكل المستويات التي يمكن تميزها حاليا في الميدان بواسطة فواصل الربط الأفقية والعمودية ، شواهد على حدود الصقالة . يتراوح علو هذه المستويات بين 1م و2م (سور باب الكيسة) ويقل هذا السمك في بعض الأحيان ليصل إلى حوالي 30 سنتم إذا عوضت الصقالة بطريقة نصب الألواح أما الفواصل العمودية فتحدد إتساع الألواح المخصصة لنصب الصقالة ويتباين طولها بين 5م و7م .

* * *

تظهر بالأسوار مجموعة من الثغرات والفتحات التي تنتشر بشكل غير منتظم

(7) استعنا في هذا الإطار بالتفسيرات التي تقدم بها البناءون التقليديون الموجودون حاليا بالمدينة .

أحيانا ، ومنتظم أحيانا أخرى . فتارة تتباعد هذه الفتحات عن بعضها بحوالي 80 سنتم وتارة بحوالي 1م فأكثر (الشكل 4) أما كثافتها فتتراوح بين 2 / م^2 و5 / م^2 . كان الرأي السائد هو أن هذه الثغرات أحدثت أثناء بناء السور من أجل تسهيل عملية الارتقاء أثناء تشييد الاجزاء العليا منه ، إلا أن كثافتها الكبيرة ببعض الأجزاء ، وقربها الكبير من سطح الأرض بأجزاء أخرى (20 سنتم) ؛ بالإضافة إلى امكانية غلقها بعد بناء السور تجعلنا نستبعد هذا الرأي ، ونميل إلى كونها تركت من أجل تهوية السور والتقليل من الرطوبة به ، خاصة وأنها محمية على مستوَى السقف بواسطة أجزاء من الآجر أو الخشب ، وفي بعض الأحيان أسطوانات فخارية تحمي كل جوانب الثغرة .

* * *

يترتب عن هذه التقنيات مجموعة من الملاحظات المرتبطة بتدهور الأسوار :

1) إن اتجاه وتطور الشقوق يساير الفواصل الأفقية والعمودية التي تحد القوالب التي استعملت في تشييد السور.

2) ان التوزيع العشوائي والكثافة المرتفعة لثغرات التهوية يؤدي إلى خلق مجموعة من النوايا المتدهورة حول الثغرة ، تشكل منطلقا لتدهور السور ، خاصة بعد فقدان هذه الثغرات لسقفها الواقي (سور عين ازليتن) .

* * *

2 – التدهور المرتبط بطبيعة مواد البناء

من أهم المواد الداخلة في بناء أسوار مدينة فاس ، الكذان أو الرصراصة : (Travertins) .

1) الكـــذان

يتميز هذا النوع من الصخور بكثافة جافة تصل إلى 2،06 طن / م^3 [8] كما أن مقاومتها للضغط المسلط عليها تصل إلى 65 كلغ / سنتم^2 ، وبمعنَى آخر أن خصائصها الجيوتقنية كأساس لاقامة الأسوار لا تطرح أية مشكلة . إلا أن استغلال

(8) Notice explicative de la carte géotechnique de Fès N.M. Serv. géol. N° 186 bis.

الشكل رقم : 4

سور نموذجي لم يتعرض للتعرية بعد

- سور نموذجي لم يتعرض للتقطع
- المقياس الأفقي : 1/100
- المقياس الطولي : 1/50

المستوى الثالث

المستوى الثاني

المستوى الأول

4,5 م
4
3
2
1

م 2 4 6 8 10 12 14 16 18 20

ثقب السور

(أ) خطوط الاتصال الأفقية.
(ب) خطوط الاتصال العمودية.

نفس هذه الصخور في عملية البناء ، إما على شكل آجر ، أو خليط بعد دقها ، يفقدها خاصياتها الجيوتقنية الاصلية ، وتصبح أقل مقاومة للتعرية ، بالاضافة إلى هذا تتميز هذه الصخور بقابليتها الكبيرة لاختزان الماء ، والمحافظة على الرطوبة وذلك بالنظر إلى طبيعتها الكلسية ، وبنيتها التجويفية . كل هذه العناصر توفر إطارا ملائما لاستقرار طويل للماء وقيامه بعملية التفسخ ، سواء أكان ذلك عن طريق التميؤ أو التحلل الكيماوي .

2) الطيـــن Argile

تبرز الدراسة التي قام بها Ortelli [9] للصخور الطينية المتوفرة بمحاجر وادي الزيتون ، أن أهم الفلزات مشكلة من الايلليت ، والكاولينيت ثم المونموريونيت مع سيادة واضحة لهذه الأخيرة . معنَى هذا أن هذه الصخور التي تدخل في تكوين المواد التي يبني بها السور ، تتميز بقابليتها الكبيرة للانتفاخ والتقلص حسب كمية المياه المتوفرة بها .

لتأكيد هذه التحليلات السابقة ، افتعلنا شقوق التيبس على نماذج مصغرة[10] ، وذلك بتجفيف الطين والدقة المفصولين عن طريق عملية الغسل داخل مسخنة Etuve سمحت هذه التجربة باعطاء فكرة مقارنة للتكوينات الطينية بين مختلف مستويات السور ، كما أمكن التعرف على الاجزاء التي يمكن أن تعرف تأثرا أكبر نتيجة تعاقب فترات البلل والتجفيف .

3) الكلــس Caco 3

تتعدد مصادر الصخور الكلسية المستعملة في بناء الأسوار فهي إما راجعة إلى امداد الفليس والكذان بالكلس الحر Calcaire actif أو نتيجة للصخور الكلسية التي يوفرها الإطار المحلي ، سواء بالنسبة للمشبكات الكلسية التي تشكل مدرجات واد بوخرارب ، وواد الزحون أو الكلس البحيري المستخرج من محاجر بن سودة .

أثبت قياس الكلس[10] ، أن نسبة Caco 3 لا تتعدّى 75٪ إلا نادرا ، وأن

(9) Net M. du serv. géol. N° 186 bis Rabat 1967

(10) مختبر الجيومورفلوجيا — كلية الآداب والعلوم الانسانية بفاس .

أغلب المستويات تتراوح فيها هذه النسبة بين 50٪ و65٪ ، تعكس هذه النسبة نوعا ما نسبة الكلس بالتكوينات الاصلية سواء الفليس أو الكذان . إلا أن هناك اختلافا بين مستويات السور فيما يخص هذه النسبة ، فالمستويات الوسطَى تعرف أكبر تركز لنسبة الكلس ، يتجاوز 65٪ ، وبالمقابل تنخفض هذه النسبة بالمستوَى العلوي ويدعو إلى التفكير في نشاط لعملية الغسل فيما يؤدي إلى غياب للمادة الكلسية اللاحمة ، والتقليل من قدرة السور على مقاومة التعرية . أحسن نموذج لهذه الحالة سور عين ازليتن حيث يساهم الماء الوفير الناتج عن الأمطار المرتبطة بالاضطرابات الشمالية في إفقار المستويات العليا ، لجزء مهم من مكوناتها ، وبالتالي فقدان توازنها الأصلي وتضاؤل مقاومتها للتعرية .

* * *

خلاصة القول أن تظافر عدة عوامل داخلة في تشكيل مقومات السور تؤدي بحكم طبيعتها إلى تدهوره تدهورا متناسبا مع الأخطاء المرتبطة بإنشائه ، ونوع التكوينات الداخلة في تركيبه . إلا أن هذه العوامل المؤدية إلى التدهور تتضخم أكثر بمساهمة الظروف البيئية .

3) التدهور المرتبط ببيئة السور الحالية :

يقصد ببيئة السور كل ما يحيط بها من متغيرات طبيعية وبشرية تؤثر عليه : فالسكان المجاورون له مثلا ، يتعاملون معه على أساس أنه جزء من سكنهم ، وهناك من أدمج جزءا من السور ضمن المنزل ليشكل أحد حيطانه . فبسور باب المحروق عين أزليتن ، تبلغ نسبة المساكن الملاصقة للسور 90٪ من مجموع المنازل المجاورة . وتختلف هذه النسبة في أجزاء أخرى ، بحيث نلاحظ أنها تصل إلى 30٪ بقصبة النوار .

بمقارنة مختلف الاحصائيات الناتجة عن البحث الميداني ، نلاحظ أن هناك تداخلاً بين السور والسكن ، يتجاوز مستوَى التوظيفات التي سبق الحديث عنها . ليصبح اندماجا في النسيج الحضري لبعض أجزاء المدينة الأصيلة .

ولعل النتيجة المباشرة لهذا النوع من التداخل ، هي زيادة التدهور ، والاكثار من الثغرات والفتحات النفعية التي تعتبر منطلقا لتدهور أوسع للسور .

أما الإطار الطبيعي لمجموع حزام الاسوار فيتميز بخاصيتين اثنتين ، تساهمان بشكل فعال في اندثار السور :

ا) الرطوبة المرتفعة ببعض الاجزاء ، تتجاوز أحيانا 30٪،يساهم هذا العامل في تحريك مجموعة من مكونات السور الذائبة في الماء وتركيزها بأجزاء دون الأخرى . تتم هذه الحركة بفعل تعاقب فترات البلل والجفاف . ويظهر الارتباط جليا بين مستويات تركز الماء ، ومستويات التآكل على طول السور .

* * *

ب) الغطاء النباتي والمجالات المشجرة والمزروعة المجاورة للسور تساهم في تفكيك أجزائه ، إما بشكل ميكانيكي مباشر عن طريق تسرب الجذور ، أو بشكل غير مباشر بواسطة الافرازات الحامضية الامينية للطحلبيات ، أو الذبال[11] .

* * *

بعد هذا العرض الموجز لمظاهر التدهور التي أصابت الأسوار ، وأسبابها ، يبدو أن إشكالية الاصلاح تطرح نفسها ، كنتيجة منطقية لعدم تطابق مستويات التوظيف مع الحالة المتدهورة للأسوار .

ثالثا – محاولات الإصلاح والترميم

اتخذت هذه المحاولات عدة صفات :

1 – إصلاح شعبي عفوي :

وهو نابع من معايشة السور اليومية ، وما يتوخاه السكان بحكم هذا الاحتكاك . لذلك هناك عدة آثار للاصلاح المحلي المحدود ، إما بواسطة الحجارة ، أو الطوب ، أو بواسطة الاسمنت العصري . إلا أنها تبقَى عديمة الجدوَى ، خاصة وأنها مرتبطة إرتباطا وثيقاً بالاستغلال اليومي المحدود .

---

(11) دور النبات والرطوبة في تدهور أسوار مدينة فاس (سور باب المحروق– عين أزليتن) بحث لنيل الإجازة في الجغرافية اعداد الطالب : السباعي عبد القادر .

2 - الإصلاح الرسمي الموجه :

وهو إصلاح وقتي يخضع لأهداف غير معلنة ، ولكنها ملاحظة . فأهم الأجزاء المستصلحة توجد طول الطرق الرئيسية (سور باب الفتوح) أو بجوار الساحات العمومية (ساحة باب بوجلود) أو بجوار الفنادق المهمة (باب قصر الجامعي) ، وإذا دل هذا الاتجاه على شيء فإنما يدل على كون الاصلاح يلبي حاجيات ظرفية . وبالتالي يشوه مفهومه ، ويفرغه من محتواه العلمي والتاريخي .

لذلك كانت نتائج هذه التدخلات المرتجلة سلبية من الجانب التقني المحض ، فأغلب الاصلاحات التي أنجزت منذ 1975 على مستوَى الأبواب والأسوار المهمة ، أثبتت عن فشلها ، (نموذج إصلاح باب الفتوح) ، لأنها لم تأخذ بعين الاعتبار لا طبيعة المواد المكونة للسور ولا خصوصيتها المعمارية ، ومن ذلك اقفال ثغرات التهوية ، واستعمال أكبر للتكوينات الدقيقة التي يسهل الترميم بواسطتها ، قصد تغطية العيوب التي كانت تظهر بالسور .

3 - الإصلاح الهادف :

يتجلى في محاولة أولى لضبط تاريخ الأسوار ، وتخطيطها الأصلي ، لأنها الوسيلة الوحيدة لضبط مراحل توسع النسيج الحضري ، وذلك باستغلال كل الوثائق التاريخية والمصادر التي تتطرق إلى الموضوع . في حالة عدم التمكن من ضبط تخطيط التسطير القديم لحزام الأسوار ، يمكن الإعتماد على التقنيات الحديثة سواء المتعلقة بالتأريخ عن طريق Radio chronologie ، وإذا لم نتمكن من تحقيقه ، يمكن الإستعانة بعلم الرسابة ، لمقارنة مكونات الاسوار انطلاقا من بعض الأجزاء المعلمية Tronçons-repères

* * *

بعد هذه المرحلة يمكن التفكير في **الإصلاح الجذري** الذي سيكون معتمدا على المتغيرات التي تميز إشكالية الاصلاح ، سواء المتعلقة بالتوظيف ، أو القيمة التاريخية ، بحيث يمكن التخلي عن الاجزاء عديمة الأهمية ، للتركيز على الاجزاء ذات الأهمية البالغة . أما الترميم فيجب أن يعتمد في مراحله الأولى على الدراسة

المخبرية لكل جزء ينشد إصلاحه قبل الشروع في عملية الحفر أو البناء .

يمكن ، بحكم التوظيف والوظائف المتعددة للاسوار ، اعتبار إصلاح هادف من هذا النوع، نموذجا حيّاً لمفهوم الانقاد بكل ما يحتويه من مدلولات اجتماعية وثقافية واقتصادية .

RESUME :

LES REMPARTS DE LA MEDINA DE FES AUTHENTICITE OU OBSTACLE ?

La problématique posée ainsi, est tributaire de plusieurs facteurs qui ne peuvent être saisis, qu'une fois définie, la nature et l'évolution de la fonction des remparts à travers les périodes historiques.

En fait, cette fonction a beaucoup variée pendant la longue vie des remparts ; elle a été tantôt urbanistique, tantôt militaire, suivant la nature des régimes en place, de leurs options politiques et socio-économiques à l'échelle de la Médina de Fès.

De nos jours, comme par le passé, les remparts assurent un rôle important dans l'organisation de l'espace intra-muros. Leur fonction dépasse largement la définition officielle (Monument historique), pour former avec le reste des quartiers (Derbs-Haoumas) et les monuments historiques sensus-stricto, une entité socio-culturelle, type de la ville islamique.

Actuellement, la surexploitation abusive et anarchique des remparts, contribue pour une grande part à la dégradation de ceux-ci.

Une connaissance scientifique des caractéristiques géotechniques des remparts et leur environnement humain et physique, s'avère nécéssaire pour toute réstauration ou réhabilitation de ceux-ci, dans le cadre de la sauvegarde de la ville entière.